﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [النّحل: 82 - 83]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

لا تقصيرَ عليكَ بتولّيهم؛ فإنّهم أعــرفُ الـنّـاسِ بِنِعَمِ اللهِ وآلائِهِ

لَمّا بيّنَ لهُم ما أعطاهُم، وأتمَّ عليهِم منْ نعمهِ تعالى، ربّما وقعَ في الوهمِ عدمُ إجابتِهم لداعي الحقِّ؛ فأخبرَ الحقُّ سبحانهُ إخبارَ المعرضِ عنهُم المقبلِ على رسولهِ ﷺ؛ تسليةً لهُ بأنّهم إنْ "كلّفوا أنفسهُم الإعراضَ ومتابعةَ الأهواءِ فلا تقصيرَ عليكَ بسببِ تولّيهم ولا حرجَ ... وليسَ عليكَ أنْ تردّهُم عن العنادِ"[1]، وليسَ إعْراضُهُم عنْ جهلٍ، بلْ إنّهم أعرفُ النّاسِ بنعمِ اللهِ وآلائهِ، ولكنّهم قومٌ منكِرونَ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَوَلَّوْاْ﴾: أصْلُ (ولي): يَدُلُّ على قُرْبٍ، مِنْ ذلك الوَلْيُ: القُرْبُ، يُقالُ: تَباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ، أي: قُرْبٍ، وجَلَسَ مِمّا يَلِينِي، أي: يُقارِبُنِي[2]، والوَلايَةُ: تَوَلِّي الأمرِ، فإذا عُدِّي (تَوَلَّى) بنفسِه اقتَضَى معنَى الوَلايَةِ، وحُصولَهُ في أقْرَبِ المواضِعِ، وإذا عُدِّي بـ (عَنْ) لفظًا أو تقديرًا اقتَضَى معنَى الإعراضِ وتَرْكَ قُربِه، فمِنَ الأوَّلِ قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: 51]، ومِنَ الثّاني قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [آل عمران: 63][3]، والمرادُ بالتَّولي في الآيةِ: الإعْراضُ والإدبارُ: وهو مُستعارٌ هنا للمُكابرةِ والعِنادِ.

2) ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾: أصْلُ (بلغ): يدلُّ على لُحوقِ الشَّيْءِ والوُصولِ إليه أو المُشارَفَةِ عليه[4]، يُقالُ: بَلَغْتُ المَكانَ بُلوغًا، أي: وصَلْتُ إليه،

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 227 - 228.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 102.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بلغ).

وكذلك إذا شارَفْتُ عليه[1]، والبُلْغَةُ ما يُتَبَلَّغُ بِهِ مِنْ عَيْشٍ، كَأَنَّهُ يُرادُ أَنَّهُ يَبْلُغُ رُتْبَةَ المُكْثِرِ إذا رَضِيَ وقَنِعَ، وكَذَلِكَ البَلاغَةُ الَّتِي يُمدَحُ بِها الفَصِيحُ اللِّسانِ؛ لِأَنَّهُ يَبْلُغُ بِها ما يُرِيدُهُ[2]، والبَلاغُ أيضًا: الإبْلاغُ، وفي التنزيل: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ [الجن: 23]، والمقصود بالبلاغ في الآية: اسمُ مصدرِ بلَّغ، أيْ أوْصَلَ الحَدِيثَ أوِ الكَلامَ، ويُطْلَقُ عَلَى الكَلامِ المُبَلَّغِ مِنْ إطْلاقِ المَصْدَرِ عَلَى المَفْعولِ.

3) ﴿يُنكِرُونَهَا﴾: أصلُ (نكر): أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ على خِلافِ المَعْرِفَةِ الَّتِي يَسْكُنُ إليها القَلْبُ، ونَكِرَ الشَّيءَ وأنكَرَهُ: لَم يَقْبَلْهُ قَلْبُهُ ولَم يَعترِفْ به لِسانُهُ[3]، والإنْكارُ: نَفْيُ الشَّيْءِ وجَحْدُهُ ورَدُّهُ، يُقالُ: أنْكَرْتُ حَقَّهُ أيْ جَحَدْتُهُ ونَفَيْتُهُ، وكُلُّ ما جَهِلَهُ النّاسُ وجَحَدوهُ فهوَ مُنْكَرٌ[4]، والمقصود بالإنكار في الآية: نَفْيُ الشَّيْءِ وجَحْدُهُ ورَدُّهُ، والمراد: إنكارُ حَقِّ النِّعْمَةِ، أي: يُنْكِرونَ مُلابِسَها، وهو الشُّكرُ[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مُـهـمَّـةُ الـنَّـبـي ﷺ الـتَّـبـلـيـغُ، والـقـلـوبُ بيد اللهِ

ومع بيان اللّه تعالى نِعَمَه عليهم، فإن استمرَّ هؤلاءِ المشركون في إعراضهم عنكَ - أيها الرسول - وعن دعوتك بعد هذا البيان والامتنان - بعد ما رأوا من الآياتِ - فلا تحزن، فما عليكَ إلا البلاغُ الواضحُ لما أُرْسِلْتَ به، وأما الهداية فإلينا، ثم بيَّن اللّه تعالى موقفَ المشركينَ مِن نعمِ اللّه وإحسانه إليهم، فقال: يَعرِفُ المُشرِكونَ نِعَمَ اللّهِ عليهم، ثم يَجحَدونَها، فلا يَشكُرونَ اللّهَ عليها، ويَنسُبونَها إلى غَيرِه، ويُشرِكونَ به في عبادتِه، وأكثرُهم الكافرون[6].

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (بلغ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلغ).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نكر).
(4) الخليل، العين: (نكر).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 242.
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 592، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 222، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 242، والشنقيطي، أضواء البيان: 2/ 420.

وترشدُ الآيتانِ إلى أنَّ مهمةَ الرسول ﷺ ليست هدايةَ القلوب، وإنما هي بيانُ الطريق بالبلاغ الذي يوضِّح معالمَ الدِّين ويبيِّن الصراطَ المستقيم، وهؤلاء المشركون مسؤولون ومحاسبون على عدم استجابتهم، أمّا خلق الإيمان في قلوبهم فليس الرسول ﷺ بقادر عليه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾:

ذكرَ سببَ العذرِ وهو البلاغُ ليدلَّ على المسببِ

في قولِه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ الفاءُ دالةٌ على التّفريع[2]، فرّعت هذهِ الجملةَ على جملةِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾[3]، أي: أنّهم إن تولّوا ولم يقبلوا دعوتكَ فقد بانَ عُذرُك، وأدّيتَ ما عليكَ من البلاغِ.

إيثارُ حرفِ الشّرطِ (إنْ):

توليهم محتملُ الوقوعِ وغيرُ محتملٍ

واستعملَ حرفَ الشّكّ (إنْ) في قولِه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ دونَ حرفِ الوقوعِ (إذا) نظرًا إلى ما هو في الأمرِ نفسِه؛ لأنّه محتملُ الوقوعِ وعدمِ الوقوعِ[4]، واللّهُ أعلمُ بأنّهم يتولّونَ أو لا يتولّونَ؛ فاستعمالُ (إن) أوسعُ من (إذا).

وجهُ استعمالِ لفظِ (التّولّي):

الإعراضُ تركٌ والتّولي تركٌ معَ البعدِ وهو حالُ الكافرينَ وفيهِ تيئيسٌ منهُم

قولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ ومعنى التّولي هو التّركُ والمباعدةُ، ويشبهُهُ في هذا المعنى فعلُ الإعراضِ إلّا أنّ بينهُما فرقًا دقيقًا، فمعنى أعرضَ عنهُ، أي: أظهرَ له عرضهُ، وهو كنايةٌ عن التّركِ، أمّا قولهُم تولّى عنهُ فهو بمعنى الإعراضِ وزيادةٍ وهي البعدُ[5]، وفي ذلكَ

(1) مجمع البحوث الإسلامية، التفسير الوسيط: 5/ 664، والجزائري، أيسر التفاسير: 3/ 146.
(2) هي الفاء التي تربط جملتين فيكون ما قبلها علة لما بعدها وما بعدها فرع عنه، الصبان، حاشية على الأشموني: 3/ 142.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 241.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/ 353.
(5) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 165.

تيئيسٌ من حالِ الكفّار فإنّهم لو أعرضوا وزادوا التّوليةَ معَ الإعراضِ فأنتَ معذورٌ يا محمّد، وليسَ عليكَ إلّا البلاغُ؛ لأنّه أرادهُ إعراضًا معنويًا عن الإيمانِ بالرّسولِ ﷺ، والتّصديقِ به، وفضّلوا ما هم عليهِ من الملّذاتِ الدنيويةِ[1].

دلالةُ صيغةِ ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ في الآيةِ:

والفعلُ ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ وزنهُ (تَفَعّلَ)، وهي صيغةٌ دالّةٌ على المعالجةِ والتّكلّفِ[2]، وهوَ المعنى الّذي أرادهُ في الآيةِ بإيرادِهِ الفعلَ على هذهِ الصيغةِ؛ فإنَّ الفطرةَ السّليمةَ تُقبلُ على اللهِ سبحانهُ، ولا تنحرفُ عمّا يرضيهُ إلّا بالمعالجةِ والتّكلّفِ؛ فهؤلاءِ كلّفوا أنفسَهُمُ الإعراضَ واتباعَ الهوى؛ فلا مؤاخذةَ عليكَ بسببِ تولّيهم[3].

كلّفوا أنفسهُم الإعـــــراضَ ومتابعةَ الأهواءِ فلا تقصيرَ عليكَ بسببِ تولّيهِم

دلالة الفعلِ بينَ الماضي والمضارعِ:

والفعلُ ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ مترددٌ بين الماضي والمضارعِ لجوازِ كونهِ (تتولوا) مضارعًا حذفَ حرفٌ منه[4]؛ فإن كانَ ماضيًا، أي: "فإنْ أعرضوا عنِ الدّعوةِ فلا تقصيرَ منكَ، ولا غضاضةَ عليكَ؛ فإنّكَ قدْ بلّغتَ البلاغَ المبينَ للمحجّةِ"[5]، وإنْ كانَ مضارعًا فالشّأنُ استمرارُ ذلكَ حاضرًا ومستقبلًا بجريانِ الحكمِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ "أي: فإنْ داموا على التّولّي والإعراضِ وعدمِ قبولِ ما ألقيَ إليهِم من البيّناتِ"[6] فما عليكَ إلّا التّبليغُ الواضحُ.

إعـــراضُـــهُـــم ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا تَبِعَتُهُ عليهم لا عليكَ

تلوينُ الخطابِ في الآيةِ:

وفي قولهِ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ انتقلَ في الآيةِ منْ خطابِهم إلى خطابهِ ﷺ، فإنّهم إنْ أعرضوا عمّا دعوتَهُم

تسليةً للنّبيّ، فإعراضهم ليسَ عليه فيهِ عَتْبٌ ولا سمةُ تقصيرٍ

(1) الخازن، لباب التأويل: 3/ 93.
(2) الزمخشري، المفصل، ص: 371.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 228، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 5/ 67.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 41.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 241.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 442.

إليهِ وتولّوا؛ فلا يلحقكَ عتبٌ ولا تقصيرٌ؛ فلأنّ عليكَ البلاغُ حسب، وقدْ فعلتَ، وفي ذلكَ تسليةٌ لهُ ﷺ[1] على عدمِ طاعتهِم واستجابتهِم.

الالتفاتُ في تحويل الخطاب عنهُم لإشعارهِم بأنَّ ضلالهُم يقتضي تركَ محاورتهم

وفي تحويلِ الخطابِ منهُم إلى خطابهِ ﷺ نوعٌ من الالتفاتِ من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ آخرَ، بأنْ وجّهَ الكلامَ منْ شخصٍ إلى شخصٍ آخرَ؛ فإنَّ القصدَ أنْ يسلموا، فإن لم يسلموا فليسَ عليكَ إلّا البلاغُ[2]، وفي الالتفاتِ إشعارٌ بأنَّ ضَلالَهُم واتّباعَهُم أهواءَهم يقتضي أنْ يضربَ الخِطابُ عنهم صَفْحًا.

بلاغةُ القصرِ بـ (إنّما) في الآية:

مهمتُكَ البلاغُ لا تقليبَ قلوبهِم إلى الإسلامِ أو مجازاتهم

وأوردَ الأداةَ (إنّما) في قولهِ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ لإفادةِ القصرِ[3]، وهو قصرٌ إضافيٌّ من قصرِ صفةِ تكليفهِ ﷺ على الموصوفِ وهو البلاغُ المبينُ، أي: أنّه لا يجبُ عليكَ إلّا البلاغُ، وليسَ عليكَ تقليبُ قلوبِ هؤلاءِ إلى طريقِ الإسلامِ، وليسَ عليكَ جزاؤهُم إثرَ إعراضهِم، بل علينا الجزاءُ[4].

للحصرِ المحقّقِ فإنّ عليهِ البلاغَ تولّوا أم لم يتولّوا

والحصرُ متحقّقٌ في (إنّما) في أنَّ عليهِ ﷺ البلاغَ "إذْ لوْ لم تكنْ للحصرِ كانتْ بمنزلةِ إنْ تولّوا فعليكَ البلاغُ، وهوَ عليهِ البلاغُ تولّوا أم لا، وإنّما ترتّبَ على توليهِم نفي غيرِ البلاغِ ممّا قدْ يُتوهّمُ نسبتهُ لهُ ﷺ"[5].

اجتماعُ حرفي التّوكيدِ توالِيًا يفيدُ الحصرَ حصرَ مهمتهِ في التّبليغِ

والقصرُ في الآيةِ متحقّقٌ باجتماعِ المؤكّداتِ توالِيًا، فقدِ اجتمعت (إنَّ) المؤكّدةَ و(ما) الّتي تفيدُ التّأكيدَ أيضًا؛ لينتظما في (إنّما) الدّالةِ على الحصرِ[6]؛ فمهمتهُ ﷺ منحصرةٌ في التّبليغِ الواضحِ.

(1) السمعاني، تفسير القرآن: 3/ 193.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 241.
(3) معنى القصر عمومًا راجع إلى تخصيص الموصوف عند السامع بوصف دون ثانٍ، وفيه أنواع كثيرة كالإضافي والادعائي وغيرهما، يُنظر: السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 288.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 241.
(5) السبكي، عروس الأفراح: 1/ 403.
(6) ابن عقيلة، الزيادة والإحسان في علوم القرآن: 6/ 20 - 21.

بيانُ جوابِ الشّرطِ، وموقعِ الفاءِ:

الفاءُ وما بعدَها جوابُ الشّرطِ صورةً لا حقيقةً

وقولهُ في الشّرطِ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ يقتضي جوابًا، وجاءت الفاءُ وما بعدَها جوابًا للشّرطِ صورةً لا حقيقةً؛ لأنَّ الجوابَ في حقيقتهِ محذوفٌ تقديرهُ: فأنتَ معذورٌ فقدْ فعلتَ ما يجبُ عليكَ فعلهُ، فوُضعَ سببُ العذرِ وهوَ البلاغُ مقامَ المسببِ؛ لأنّهُ يدلُّ عليهِ ويوضّحهُ[1].

إن تولّوا فقد تمهّدَ عذرُكَ بعدَ ما أدّيتَ ما وجبَ عليكَ من التّبليغِ

وجملة ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ جوابُ شرط لجملة: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ والفاءُ واقعةٌ في جوابِ الشرطِ بترتيبِ ما بعدَها على ما قبلَها[2]، على إقامةِ العلةِ مقامَ المعلولِ، والمعنى: إنهم إنْ تولوا فلا شيءَ عليكَ منْ تقصيرٍ أوْ عَتْبٍ أوْ مؤاخذةٍ فإنهُ ليسَ عليكَ إلا البلاغُ المبينُ[3]، وقد قُبلَ عذركَ بعدَ أن أديتَ ما عليكَ.

فائدةُ التقديمِ في ختامِ الآيةِ:

البلاغُ المبينُ عليكَ لا يتجاوزكَ وفيهِ تكليفٌ وتشريفٌ لكَ

وقدّمَ المسندَ ﴿عَلَيْكَ﴾ على المسندِ إليهِ ﴿ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ في الآيةِ؛ لأنّ الأصلَ (البلاغُ المبينُ عليكَ)، وهو تقديمٌ جائزٌ غرضهُ قصرُ المسندِ إليهِ على المسندِ، أي: أنَّ البلاغَ المبينَ عليكَ لا يتجاوزكَ، وأنّ غيرَ البلاغِ ليسَ عليكَ؛ فلستَ مَعْنيًّا بهدايتهم[4]، وفيهِ تكليفٌ وتشريفٌ لهُ ﷺ، فضلًا عن تبكيتهم، وأنّه ليسَ له من الأمرِ شيءٌ إن هم أعرضوا وتولّوا.

إيثار لفظ ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾:

البلاغ إيصالُ الرسالةِ منَ الرسولِ إلى المرسَلِ إليهم

ولمّا أرادَ إعذارَهُ ﷺ منْ تبعةِ ضلالهم وعدمِ اهتدائهم بعدَ أنْ قامَ بما عليهِ قالَ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، فذكرَ البلاغَ، وهوَ مِنْ بلغَ المكانُ بمعنى الوصولِ إليهِ، والبلاغُ هوَ الكفايةُ، وهوَ الانتهاءُ إلى أقصى المقصدِ المرادِ[5]، أمّا البيانُ فهو التّوضيحُ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/ 578.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4239.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 241 - 242.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 15/ 359.
(5) الجوهري، الصّحاح: (بلغ)، والرّاغب، المفردات: (بلغ).

والكشفُ، يقالُ: بانَ الشّيءُ وأبانَ إذا اتّضحَ وانكشفَ[1]؛ فالرّسولُ ﷺ كانتْ رسالتهُ على الغايةِ من انتهاءِ المقصدِ بأنْ أمرهُم بأوامرَ، ونهاهُم عنْ نواهٍ، وزادهُ بأنْ وصَفهُ بالمبينِ؛ فحقّقَ الحسنيينِ.

دلالةُ وصفِ البلاغِ بقولهِ: ﴿ٱلْمُبِينُ﴾:

يكونُ واضحًا موضّحًا يبلغُ عامّةَ النّاسِ بما يناسبهُم من البيانِ والأسلوبِ

ووصفَ البلاغَ بالمبينِ في قولهِ: ﴿عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ فإيثارُ صيغةِ (مُفْعِل) بدلًا من البيّنِ أو نحوهِ فيه تنبيهٌ للدّعاةِ والمصلحينَ أنّ البلاغَ على إطلاقهِ لا يكفي، بل يجبُ أن يكونَ بلاغًا واضحًا في نفسهِ موضّحًا لأحكامِ الدّينِ والعقيدةِ؛ فيكونُ تبليغهُ للنّاسِ عامّةً بما يناسبهُم من البيانِ والأسلوبِ؛ فيصلُ إلى خاصّتهِم وعلمائهِم[2].

بلاغةُ الاستئنافِ في جملةِ ﴿يَعْرِفُونَ﴾:

عرف المشركون نعمةَ اللهِ فأعرضوا إنكارًا ومكابرةً

وجملةُ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ استئنافٌ بيانيّ ناشئٌ عن سؤالٍ منقدحٍ في ذهنِ السّامعِ، أن كيفَ خفيتْ عليهِم دلائلُ الإسلامِ فتولّوا عنْ دعوتهِ معَ وفرةِ أسبابِ اتّباعهِ؟ فكانَ الجوابُ: أنّهم عرفوا نعمةَ اللهِ، لكنّهم أعرضوا منكرينَ ومكابرينَ[3].

فصلُ جملةِ ﴿يَعْرِفُونَ﴾ عمّا قبلَها:

جملةٌ حاليةٌ أو بدلُ اشتمالٍ من توليهم

وجملةُ ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ يجوزُ أن تكونَ حالًا من الضّميرِ في ﴿تَوَلَّوْا۟﴾[4]، ويجوزُ أنْ تكونَ بدلَ اشتمالٍ منْ جملةِ ﴿تَوَلَّوْا۟﴾؛ فعلى هذهِ الأحوالِ لم تُعطفْ على ما قبلَها وفُصلتْ، ومعَ معرفتِهم بأنّها نعمةُ اللهِ فقدْ أنكروها، أيْ: أنكروا شكرَها بأنّهم عبدوا غيرَهُ تعالى، فكأنّهم بذلكَ أنكروها[5].

جملةُ العرفانِ والإنكارِ جوابٌ لجملةِ توليهِم بعدَ الإبلاغِ المبينِ

ولم تعطفِ الجملةُ على سابقتِها؛ لأنّها حلّت محلَّ الجوابِ عمّا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).
(2) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 165.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 242، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 442.
(4) الدرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 5/ 240.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 242.

قبلَها، وهو قولهُ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، وهو من بابِ الفصلِ لشبهِ كمالِ الاتصالِ في علمِ المعاني؛ فالجملةُ الثّانيةُ جوابٌ للأولى؛ ففصلتْ ولم يحتجْ للعطفِ[1].

سرُّ اختيارِ فعلِ المعرفةِ:

واستعملَ فعلَ المعرفةِ معَ نعمةِ اللّهِ بقولهِ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾، ولم يستعملْ (يعلمون) أو نحوَهُ من الأفعالِ الدّالةِ على الإدراكِ؛ ذلكَ أنَّ المعرفةَ علمٌ يعيّنُ الشّيءَ مفصّلًا بخلافِ العلمِ؛ فإنّهُ قدْ يتعلّقُ بالشّيءِ مجملًا؛ فالعرفانُ أخصُّ من العلمِ، فهو إدراكُ الشّيءِ بالتّدبرِ لأثرِهِ، والنّظرُ والتّفكّرِ فيه[2]؛ ولأنَّ المعرفةَ مختصّةٌ بالذّواتِ، كما أنَّ العلمَ مختصٌّ بالصّفاتِ، وكأنّهُ أرادَ هنا أنْ يصفَ حالَ معرفتِهم بنعمةِ اللّهِ كمنَ يلمسُها لمسَ اليدِ ويتقلّبُ فيها، كما هوَ الحالُ ممّنْ يباشرُ شيئًا ماديًّا ملموسًا دالًّا على الذّاتِ، وفي هذا الوصفِ توبيخٌ وتقريعٌ عليهم بمعرفتِهم نعمةَ اللّهِ فيما ذكرَ من أشياءَ، والإقرارِ بها، ثمّ جَحْدِها والكفرِ به تعالى[3] بعدَ قولهِ: ﴿يُنكِرُونَهَا﴾.

التشنيعُ عليهم؛ إذ المعرفةُ علمٌ يعيّنُ الشّيءَ مفصّلًا بخلافِ العلمِ

وورودَ التّعبيرُ بـ﴿يَعْرِفُونَ﴾، ولم يردْ بـ (يعلمون)؛ لأنَّ المقابلَ الضّدّي له (ينكرونَ)، فيما يكونُ المقابلُ الضّدّي لـ(يعلمونَ) هو (يجهلونَ)، والآيةُ مسوقةٌ لإنكارِ الكافرينَ نِعَمَ اللّهِ؛ فهم يعرفونَ نعمهُ ويميزونَها[4]، وليسَ السّياقُ هنا سياقَ إنكارٍ عن جهلٍ بل عن معرفةٍ مؤكَّدةٍ.

الآيةُ جاءتْ في سياقِ إنكارِ الكفّارِ نعمَ اللهِ بعدَ عرفانِها لا جهلِها

دلالةُ المجازِ في إسنادِ الإنكارِ إليهم:

وأسندَ فعلَ الإنكارِ إليهم بقولهِ: ﴿يُنكِرُونَهَا﴾ من بابِ المجازِ

ينكرونَ ملابسَ النّعمةِ وهوَ الشّكرُ ويكفرونَ بالمنعمِ سبحانهُ

(1) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 167.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 6/ 394.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 413.
(4) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 167.

اللّغويّ، أو المجازِ العقليّ، بمعنى: أنّهم ينكرونَ حقَّ النّعمةِ، أيْ: ينكرونَ مُلابِسها وهوَ الشّكرُ[1] فسمّاهم منكرينَ للنّعمةِ من بابِ التّجوّزِ بأن كفروا بالمنعمِ وهو الحقّ سبحانهُ، وكانَ جديرًا بهم أن يرتّبوا على معرفةِ نِعَمِ اللّهِ مقتضاها منْ إفرادِهِ بالشّكرِ والعبادةِ.

سرُّ استعمالِ المضارعِ في المعرفةِ والإنكارِ:

معرفةُ نعمِ اللهِ بتقلّبهم فيها ثمّ إنكارُها بأفعالهم حيثُ عبدوا غيرَ المنعمِ

واستعملَ الفعلَ المضارعَ في فِعْلَي المعرفةِ ﴿يَعۡرِفُونَ﴾ والإنكارِ ﴿يُنكِرُونَهَا﴾ بجامعِ دلالةِ الفعلِ المضارعِ على الحدوثِ والتّجدُّدِ، وهي صفةٌ عامّةٌ في الأفعالِ[2]؛ فلمّا كانت معرفةُ نعمِ اللّهِ بإقرارهم، وأنّهم يتقلّبون فيها، ويتمتعونَ بتلكَ النّعمِ الّتي أسبغَها عليهم[3]، ثمّ إنكارها بأفعالهم بأن عبدوا غيرَ المنعمِ سبحانهُ[4] كانَ من الأليقِ التّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ الدّالّ على الحدوثِ والتّجدّدِ في فعلي المعرفةِ والإنكارِ فهما متجددان مستمران.

أثرُ حرفِ العطفِ ﴿ثُمَّ﴾:

الدلالةُ على استبعادِ إنكارِ النّعمةِ بعدَ معرفةِ حقّها

واستعملتْ ﴿ثُمَّ﴾ بينَ فعلي المعرفةِ ﴿يَعۡرِفُونَ﴾ والإنكارِ ﴿يُنكِرُونَهَا﴾، ومعناها هنا الاستبعادُ، أي: "الدّلالةُ على أنّ إنكارهُم أمرٌ مستبعدٌ بعدَ حصولِ المعرفةِ؛ لأنّ حقّ منْ عرفَ النّعمةَ أن يعترفَ لا أن ينكرَ"[5]، فالعطفُ بـ﴿ثُمَّ﴾ هنا لبعدِ المنزلةِ بينَ معرفةِ النّعمةِ وإنكارِها.

التّراخي الرُّتْبِيُّ بزوالِ المهلةِ الزّمانيةِ لأنَّ إنكارَ نعمةِ الله أمرٌ غريبٌ

ومعنى ﴿ثُمَّ﴾ في الجملةِ للتّراخي الرّتبيّ، فقد عطفتْ جملةَ ﴿يُنكِرُونَهَا﴾ على جملةِ ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾، فكأنّ العطفَ حاصلٌ بثُم المُتحصلِ منهُ التّشريكُ بالحكمِ بزوالِ المهلةِ الزّمانيةِ منهُ؛ لأنّها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 242.
(2) فاضل السامرائي، معاني النّحو: 1/ 16.
(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 14/ 182.
(4) النّسفي، حقائق التأويل: 2/ 227.
(5) الزمخشري، الكشاف: 2/ 626، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 255.

للتّراخي الرّتبيّ؛ فصارت مهلةً رتبيةً لا زمانيةً؛ لأنّه من الغرابةِ إنكارُ نعمةِ اللّهِ[1] بعدَ معرفتِها؛ فإنّ إنكارَ النّعمةِ لا يتراخى عن معرفتِها.

وتحتملُ ﴿ثُمَّ﴾ أن تكونَ دالّةً على البعدِ المعنويّ بينَ المعطوفِ عليهِ والمعطوفِ، وليسَ البعدَ الزّمانيّ، أو المهلةَ الموضوعةَ لهُ ﴿ثُمَّ﴾ في لسانِ العربِ[2]؛ لأنّ منْ عرفَ شيئًا وهو هنا النّعمةُ ينبغي أن يكونَ أنأى النّاسِ عن إنكارِهِ[3]؛ فيكونُ آنئذٍ مقرًّا على نفسهِ بالكذبِ واستحقاقِ العذابِ.

البعدُ المعنويُّ بينَ المتعاطفِين، فمنْ عرفَ شيئًا يكونُ أبعدَ النّاسِ عن إنكارِهِ

نكتةُ إسنادِ المعرفةِ والإنكارِ:

وأسندَ فعلَ المعرفةِ ﴿يَعْرِفُونَ﴾ وفعلَ الإنكارِ المتفرّعِ عليهِ ﴿يُنكِرُونَهَا﴾ إلى ضميرِ الكافرينَ مطلقًا منْ بابِ إسنادِ حالِ بعضِهم إلى الكلِّ؛ لأنَّ بعضهُم ليسوا بكافرينَ بدلالةِ ما بعدَهُ منْ قولهِ: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، فمنهُم المنكرُ بقلبهِ[4]، ومنهم غيرُ المكلّفِ، ومنهم من لم يعرفْ الحقَّ لنقصانِ عقلهِ وغيرهم.

من بابِ إسنادِ حالِ البعضِ إلى الكلّ فإنّ بعضهُم ليسوا بكافرينَ

دلالةُ الواوِ في قولهِ: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ﴾:

والواوُ في قولهِ: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ دالّةٌ على الحالِ[5]، أي: أنّهم يعرفونَ نعمةَ اللّهِ ثمّ ينكرونَها في الحالِ الّتي هم عليها وهو صدورُ الكفرِ والجحودِ من أكثرِهم.

يعرفونَ نعمةَ اللهِ وينكرونَها حالَ كونِ أكثرِهم كافرينَ

سرُّ التّعبيرِ بلفظِ ﴿وَأَكْثَرُهُمُ﴾:

وسرُّ التّعبيرِ بلفظِ ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، والأكثرُ قد لا يكونُ دالًّا على الجميعِ؛ فلأنَّ فيهم من لم تقم عليهِ الحجّةُ؛ لأنّه لم يَبْلُغْ حدّ التّكليفِ بعدُ، ومنهُم من أصابتهُ آفةٌ فهو ذو عقلٍ ناقصٍ، فيغدو

المقصودونَ بالخطابِ هم البالغونَ الأصحاءُ الّذينَ أُقيمتِ الحجّةُ عليهِم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 242.
(2) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 158.
(3) ناظر الجيش، تمهيد القواعد: 7/ 3445.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 442.
(5) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 351 - 352.

معنى الأكثرِ هنا: البالغينَ الأصحاءَ، الذين هم المقصودون بالخطاب وإقامة الحجة عليهم[1]، فيكون التعبير بالأكثرية من قبيل الاحتراس.

المرادُ بأنّ جَمعَهُم هم الموصوفونَ بالكفرِ

يجوز في قوله ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ أن يكون المراد بالأكثر الجمعَ، لأنَّ عُظْمَ الشيءِ يقوم مقام جميعه، فَذِكرُ الأكثرِ كذِكْرِ الجميع؛ وإطلاقُ الجزء على الكل أمرٌ معهودٌ في كلام العرب.

كانَ فيهِم الجاهلُ بصدقِ الرّسولِ غيرُ المعاندِ لا الكافرُ الجاحدُ

ويجوزُ في معنى ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ أن يكونَ المرادُ من الكافرِ الجاهل عن غير عنادٍ وإصرارٍ، بعدَ معرفةِ سبيلِ الحقّ؛ فقيلَ: ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ﴾؛ "لأنّهُ كانَ فيهِم مَنْ لم يكنْ معانِدًا بلْ كانَ جاهلًا بصدقِ الرّسولِ ﷺ، وما ظهرَ لهُ كونهُ نبيًّا منْ عندِ اللّه"[2].

أكثرُهُم غالبُ المشركينَ لا جميعُهُم وهم دهماءُ المشركينَ من بسطاءِ العقولِ

ويدلُّ قولهُ: ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ على غالبِ المشركينَ لا جميعهم؛ فينبغي حملُ الغالبِ على دهماءِ المشركينَ لا معظمهم من بسطاءِ العقولِ ممَّن ليسَ لهم النّظرُ والتّفكّرُ فلا يشعرونَ بنعمةِ اللّهِ؛ لأنّ نعمةَ اللّهِ تقتضي الإيمانَ بهِ وتوحيدهُ؛ فيكونُ إشراكهُم راسخًا بخلافِ عقلائهِم وأهلِ النّظرِ والتّفكّرِ منهم، فقد حملهُم حبّ السّيادةِ والرّياسةِ على الكفرِ[3].

صيانة الاحتمالِ واحتياطًا للقلّةِ الّتي تفكّر في الإسلامِ ويراودُها أمرُ هذا الدّينِ

واستعملَ صيغةَ الأكثرِ معَ الكافرينَ منْ بابِ صيانةِ الاحتمالِ، وتركِ البابِ مفتوحًا احتياطًا لقلّةٍ منهُم تفكّرُ في الإسلامِ، ويراودُها أمرُ هذا الدّينِ الجديدِ، لكنّها لم تقتنعْ بعدُ، أوْ لم يُلامسِ الإسلامُ قلوبهُم؛ فتركَ لهم بابَ الدّخولِ قائمًا، ولوْ قالَ: وكلُّهم؛ لتعارضَ ذلكَ معَ منْ يبتغي الإسلامَ دينًا[4].

بلاغةُ القصرِ في قولهِ: ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾:

أكثرُ هؤلاءِ لا يكونونَ إلّا كافرينَ

وقولهُ تعالى: ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ جملةٌ ركناها اسمانِ

(1) الواحدي، التّفسير البسيط: 13/ 164.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 255.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 243.
(4) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 13/ 8138 - 8139.

معرّفانِ؛ لإفادةِ القصرِ، فهؤلاءِ على كثرتِهم لا يكونونَ إلّا كافرينَ؛ لأنّ الكفرَ يحصلُ بإنكارِ الحقّ، وتركِ الإقرارِ بهِ[1].

دلالةُ (ال) في لفظِ ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾:

هـم الكـاملـونَ في الكفرِ بالنّعمِ الإلهيةِ

الألفُ واللّام الدّاخلةُ على ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ دالةٌ على الكمالِ في تلكَ الصّفةِ[2]، وهي صفةُ الكفرِ بالنّعمِ الإلهيةِ، وبدلالتِها عليها من التّوحيدِ وسواهُ؛ فأكثرهُم على الغايةِ من الكمالِ في الكفرِ والجحودِ عنادًا وإصرارًا[3].

نكتةُ حذفِ المعمولِ لاسمِ الفاعلِ:

الحكمُ عليهِم بمطلقِ الكفرِ مُـؤْذِنٌ بالكمالِ في كفرِهِم

ولفظُ ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ اسمُ فاعلٍ مجموعٌ، وقدْ حذفَ معمولهُ، وأوردهُ مطلقًا فلمَ يقل: (الكافرونَ باللهِ أوْ بنعمتهِ)؛ لأنَّ الحكمَ عليهم بمطلقِ الكفرِ مؤذنٌ بالكمالِ منْ حيثُ الكمية، وهوَ لا ينافي غيرَهم منْ جهةِ الكيفيةِ، فالمرادُ أنَّ أكثرَهم مصرّونَ ثابتونَ على كفرِهم[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التّولّي والإعراض:

التَّـولّي أعـمُّ من الإعـــراض؛ فهو مطلق الإعراض، ولا يلزمه الإدبار

الإعراض: أن تولي الشيء عَرْضك: أي جانبك ولا تقبل عليه، والتَّولي: الإعراض مطلقًا، ولا يلزمه الإدبار ... والإعراضُ: الانصراف عن الشَّيء بالقلب، قال بعضهم: المُعْرِض والمتولّي يشتركان في ترك السّلوك إلا أنَّ المُعْرِض أسوأ حالًا[5]، والتولِّي: الإعراض المتكلَّف، بما يُفهمه التَّفعل، ذكره الحرالي[6].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4241.
(2) وقد ذكرها سيبويه في إرادة المبالغة في الصفة، والوصول إلى الكمال فيها، ففرق بين: (أنت الرجل كلُّ الرجل) وبين: (عبد الله كلُّ الرجل) ثم ختم بقوله: "فليس في الحُسن كالألف واللام"، يُنظر: سيبويه، الكتاب: 2/ 12.
(3) الطباطبائي، الميزان: 14/ 316.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 442.
(5) الكفوي، الكليّات، ص: 28.
(6) المناوي، التعاريف: 2/ 216.

البلاغ والبيان:

البلاغ: إيصال الرسالة، قال الجوهري: والإبلاغ الإيصال، وكذلك التبليغ، والاسم منه البلاغ[1]، والبيان هو الإيضاح والكشف عن المعنى المقصود إظهاره[2].

البلاغ إيصال ما فيه إفادة وكفاية، والبيان إيضاح وإظهار

والقرآن بلاغ؛ لِأَنَّهُ يَبْلُغُ بِه ما يُرِيدُهُ، ولِي فِي هَذا بَلاغٌ: أَيْ كِفايَةٌ[3]، وكلمة (بلاغ) المقصود بها تبليغ الرسالة[4]، والبيان: إظهار المعنى للنفس كإظهار نقيضه[5].

الإنكار والجحود:

الإنكارُ مقابلٌ للإقرارِ، والجَحْدُ أخصُّ من الإنكارِ

وعبّرَ بفعلِ الإنكارِ في قولِه تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ وهوَ المقابلُ للجَحْدِ، إلّا أنَّ ثمّةَ فرقًا بينهُما في "أنَّ الجحدَ أخصُّ من الإنكارِ، وذلكَ أنَّ الجحدَ إنكارُ الشّيءِ الظّاهرِ ... ويجوزُ أنْ يقالَ: الجحدُ هوَ إنكارُ الشّيءِ معَ العلمِ بهِ، والشّاهدُ قولُه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: 14]؛ فجعلَ الجحدَ معَ اليقينِ، والإنكارُ يكونُ معَ العلمِ وغيرِ العلمِ"[6]، ولمّا كانَ سياقُ الجملةِ في النّعمةِ؛ فإنَّ الإنكارَ أنسبُ في التّعبيرِ؛ لأنَّ إنكارهُم للنّعمةِ حصلَ بعدَ معرفتِها والإقرارِ بالمنعمِ، وبما سمعوا منْ دلائلِ القرآنِ؛ ولأنَّ الإنكارَ مقابلٌ للإقرارِ[7].

(1) الجوهري، الصحاح: (بلغ).
(2) الراغب الأصفهاني، المفردات، ص: 157.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلغ).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بلغ).
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 108.
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 157.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 242 - 243.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والعشرون،
سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 27 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-24-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 27 : المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-24-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7597590 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»